نظريّة التصميم الذكيّ صياغةٌ جديدةٌ لبرهان النظم

محسن أنبيائي

مهدي الوردي[1]

الخلاصة

إنّ هدفنا من هٰذا البحثِ هو دراسةُ إحدى القراءاتِ الحديثةِ لبرهانِ النَّظمِ، وهو ما يسمّى بنظريّة التصميم الذكيّ، ومن أهمِّ الإشكالات التي توجّه إلى برهانِ النَّظمِ التقليديّ، هو أنّ برهان النَّظمِ يفترض خيارين لتبيين النَّظمِ: الصدفة المحضة والناظم الهادف، ولٰكن مع ظهور بعض النظريّاتِ ـ كنظريّة التطوّر ـ ظهر خيارٌ ثالثٌ وهو التبيين على أساس آليّةِ الانتقاء الطبيعيّ، ما أدّى إلى عدم إمكان إثبات الناظم بمجرّد ردّ خيار الصدفة المحضة.

نوقش هٰذا الإشكال من عدّة جوانب، فبعض المناقشات تُشكِل على أصل نظريّة التطوّر، والأخرى تسلِّم بأصل النظريّة مع تبيين عجزها في بعض المجالات، وفي هٰذا المضمار ـ أي النوع الثاني من المناقشة ـ عرضت نظريّة التصميم الذكيّ.

تركّز نظريّة التصميم الذكيّ على البِنى المعقّدة غير القابلة للاختزال، وإنّ هٰذه البنى لا يمكن تبيينها على أساس آليّة الانتقاء الطبيعيّ، وبذٰلك يحذف الخيار الثالث في تبيين النَّظمِ، ويرتفع الإشكال المطروح على برهان النَّظمِ.

قد وجّهت عدّةُ إشكالاتٍ لنظريّة التصميم الذكيّ، من ضمنها عدم علميّة هٰذه

---

(1) الدكتور مهدي الوردي، العراق، باحثٌ في علم الكلام، جامعة آل البيت.

MAHDIALWARDI@GMAIL.COM

النظريّة، وكون هٰذه النظريّة من مصاديق مفهوم إلٰه الفراغات، وكذٰلك وجود النقص في بعض الأنظمة الطبيعيّة، وسيتبيّن أنّ هٰذه الإشكالات ليس باستطاعتها ردّ نظريّة التصميم الذكيّ؛ إمّا من جهة عدم صحّة الإشكال؛ وإمّا من جهة عدم أهمّيّته.

الكلمات المفتاحيّة: برهان النَّظم، نظريّة التطوّر، نظريّة التصميم الذكيّ، التعقيدات غير القابلة للاختزال.

المقدّمة

يعتبر برهان النَّظمِ[1] من أهمّ البراهين المطروحة في علم الكلام لإثبات وجود الإلٰه، ويرتكز هٰذا البرهان على النَّظم الموجود في الطبيعة، أي أنّه توجد في الكون مجموعاتٌ منسّقةٌ تعمل لغايةٍ محدّدةٍ؛ ولذا فلا يمكن تبيينها من خلال الصدفة، بل تحتاج إلى ناظمٍ مدركٍ وعالمٍ؛ ليختار لها هٰذا النوع من التأليف من بين سائر الحالات الكثيرة جدًّا.

من المعلوم أنّ من أوضح مصاديق هٰذه المجموعات المنظّمة هي الكائنات الحيّة، أمّا نظريّة التصميم الذكيّ، فهي إحدى القراءات الحديثة لبرهان النَّظمِ، والّتي طرحت تصدّيًا للإشكال المطروح من قبل نظريّة التطوّر على برهان النَّظمِ التقليديّ؛ ولذا خصّص قسمٌ مستقلٌّ لتقديم توضيحٍ إجماليٍّ عن نظريّة التطوّر وكيفيّة نشوء الإشكال من قبلها، ثمّ سيتبعه قسمٌ آخر؛ لتبيين نظريّة التصميم الذكيّ، والإشكالات الموجّهة لهٰذه النظريّة مع الإجابة عليها.

---

(1) لا يقصد من مصطلح البرهان هنا معناه الدقيق الّذي ذكر في علم المنطق، لٰكنّنا نستخدمه لما اشتهر بهٰذا العنوان.

تعريف المفاهيم

في بداية بحثنا لا بأس أن نوضّح بعض المصطلحات المرتبطة بنظريّة التصميم الذكيّ، والّتي تختلف عن معناها اللغويّ:

أوّلًا: المصمّم: عاملٌ ذكيٌّ ينظّم البنى المادّيّة للوصول إلى هدفٍ ـ سواءٌ أكان هٰذا العامل شخصًا أم غير ذٰلك، واعيًا أم غير ذٰلك، جزءًا من الطبيعة أم فوقها ـ يعمل بشكلٍ معجزٍ، أو بالقوانين الفيزيائيّة المعروفة، فكلّ هٰذه الاحتمالات واردةٌ في نظريّة التصميم الذكيّ، تحديدًا لا يشترط في المصمّم أن يكون خالقًا. [ديمبسكي، تصميم الحياة، ص 395]

ثانيًا: الذكاء: نمطٌ لداعٍ أو منهجيّةٍ أو مبدإٍ قادرٌ على إيجاد الطرق المطلوبة للوصول إلى الغايات وانتخابها وتكييفها وتطبيقها. ونظرًا لكون الذكاء متعلّقًا باستخدام الوسائل للوصول إلى الغايات، فإنّ له سمة الغائيّة، وهو قريبٌ من الحكمة في أدبيّاتنا الكلاميّة.

ثالثًا: التصميم الذكيّ (Intelligent Design): دراسة الأنماط في الطبيعة، والّتي يمكن تفسيرها بالشكل الأمثل كمنتجاتٍ للذكاء، يحاول التصميم الذكيّ ـ بوصفه نظريّةً شارحةً لأصول الحياة ـ أن يظهر السببيّة الذكيّة بدلًا من القوى المادّيّة العمياء، بوصفها أمرًا مطلوبًا لشرح أنماطٍ محدّدةٍ من التعقيد والتنوّع البيولوجيّ، يحتاج التصميم الذكيّ للتمييز عن التصميم الأمثل (Optimal Design)، فالأشياء المصمّمة بالشكل الأمثل هي الأشياء المصمّمة الّتي لا تقبل أيّ تحسينٍ. [المصدر السابق، ص 401]

1 ـ نظريّة التطوّر

أ- السير التاريخيّ لنظريّة التطوّر

في عام 1832 شرع داروين بسفره البحريّ، الّذي قام من خلاله بدراسة

النباتات والحيوانات في جزر غالاباغوس في المحيط الهادئ، وكان حاصله إطلاق نظريّة التطوّر المعروفة، متأثّرًا في ذٰلك بكتاب (مبادئ الجيولوجيا) لتشارلز لايل (Charles Lyell)، ومؤلّفات الباحث السكانيّ والاقتصاديّ توماس مالتوس (Thomas Robert Malthus) (1766ـ 1834) في موضوع دور التزاحم في التجمّعات البشريّة.[المصدر السابق، ص 106]

بعد البحث والدراسة الممتدة لخمس وعشرين سنة، في سنة 1859م ألّف داروين أوّل كتاب له في هٰذا المجال المسمّى (أصل الأنواع) (On the Origin of Species)، وقد أفصح فيه عن رأيه بهٰذا القول: إنّ جميع الأحياء على سطح الأرض تنحدر من سلفٍ مشتركٍ، والتنوع الحاصل فيها إنّما هو نتيجة القوانين غير الموجّهة والانتقاء الطبيعيّ. [EDWARD CRAIG (ED), THE) ROUTLEDGE ENCYCLOPEDIA OF PHILOSOPHY, VOL 2, P 796]

بعد اثني عشرة سنةً، نشر داروين كتابًا آخر بعنوان (أصل الإنسان) (Descent of Man)، وأكّد فيه على أنّ الإنسان أيضًا غير مستثنًى من هٰذه القاعدة العامّة، ويمكن تبيين جميع الصفات المميّزة للإنسان استنادًا إلى التعديل التدريجيّ لأسلافه المشابهين له، ومن خلال فكرة الانتقاء الطبيعيّ، حتّى بالنسبة إلى الأخلاقيّات والمشاعر الإنسانيّة، فإنّه يتميّز عن غيره في الشدّة والضعف لا في النوع؛ فإنّ الحيوانات أيضًا تحظى بدرجةٍ ضعيفةٍ من المشاعر والتفاهم فيما بينهم. [باربور، علم و دين، ص 107 و108]

ب- تقرير نظريّة التطوّر

تتألّف هٰذه النظريّة من المقدّمات التالية:

الأولى: التغيّرات الاتّفاقيّة في السمات الوراثيّة

تحدُث في كلّ (نوعٍ)[1] من الكائنات الحيّة تغيّراتٌ صغيرةٌ، وحسب الظاهر اتّفاقيّةٌ، ويمكن لها أن تنتقل إلى الجيل اللاحق بالوراثة.

الثانية: التنازع [أو الصراع] على البقاء

إنّ عدد الكائنات الحيّة يمثّل أكبر عددٍ من تلك القادرة على الوصول إلى مرحلة الإنجاب، من هنا قد تشكّل بعض التغيّرات المشار إليها في المقدّمة الأولى، عاملَ امتيازٍ في المنافسة على الحياة القائمة بين الأفراد المختلفة من نوعٍ واحدٍ أو الأنواع المختلفة الموجودة في بيئةٍ واحدةٍ. [المصدر السابق، ص 108]

جـ - بقاء الأصلح [أو الأنسب]

يعمّر الأفراد والأنواع الّتي تحظى بعامل الامتياز المذكور أكثر من معدّل عمر المجموع، وينجبون عددًا أكبر من الأفراد؛ ولهذا سيتكاثرون أسرع من الآخرين، وبمرور الزمن، سيؤدّي هذا الأمر إلى الانتقاء الطبيعيّ لهذه الأنواع، وفي المقابل، فإنّ الأنواع الأقلّ كفاءةً ستقلّ شيئًا فشيئًا حتّى تنقرض، وحتّى تؤدّي إلى التبديل التدريجيّ للنوع ونشوء نوعٍ جديدٍ. [باربور، علم و دين، ص 106]

في بدايات القرن العشرين، ضعفت القيمة العلميّة لهذه النظريّة من جهة عدم وجود الشواهد المؤيّدة لها، لٰكنّ ظهور علم الجينات أضفى حياةً جديدةً على هذه الرؤية، وأعاد تقريرها ما جعلها تواكب العلم الحديث، فالتغييرات الاتّفاقيّة الّتي ذكرها داروين، استبدلت بالطفرات الجينيّة الاتّفاقيّة.

---

(1) النوع (**Species**): المستوى التصنيفيّ التالي للجنس (**Genus**). هناك الكثير من التعريفات المطروحة للنوع، أشهرها: جماعةٌ من الكائنات الحيّة المتزاوجة والمعزولة تكاثريًّا عن غيرها من الجماعات. لا يمكن استخدام هذا التعريف على الكائنات الحيّة الّتي لا تتكاثر بالتزاوج كالجراثيم، ولا يمكن تطبيقه بشكلٍ موثوقٍ على الكائنات الأحفوريّة، الّتي يستحيل اختبار قدرتها على التزاوج من عدمه. [ديمبسكي، تصميم الحياة، ص 411]

2- تحديد الإشكال الموجّه إلى برهان النَّظم من قبل نظريّة التطوّر

إنّ طرح بعض الآليّات الطبيعيّة ـ مثل نظريّة الانتقاء الطبيعيّ ـ أدّى إلى ظهور تحدّياتٍ جديدةٍ لبرهان النظم قبل طرح هٰذه الآليّات، فقد كان الشكل التقليديّ لبرهان النظمِ يواجه خيارين لتبيين الظواهر المنظّمة، وهما: الصدفة، ووجود الناظم. ومن ثَمَّ كان يتمّ إثبات وجود الناظم من خلال تبيين عدم معقوليّة خيار الصدفة، ولٰكنّ ظهور الخيار الثالث ـ أي التبيين من خلال الآليّات الطبيعيّة ـ أحدث مشكلةً بالنسبة للتقرير السابق، وهو أنّه بوجود هٰذا الخيار الثالث لا يمكن إثبات وجود الناظم الهادف من خلال ردّ الصدفة. [طباطبايى، توهم خدا يا توهم داوكينز، معرفت فلسفى، سال دوازدهم، زمستان 1393، ص 77]

قد فصّل دوكينز آراءه الإلحاديّة في آثاره العديدة ككتاب (صانع الساعات الأعمى) (The Blind Watchmaker) وحاول أن يبيّن كيف أنّ نظريّة التطوّر تدعم بقوّةٍ عدم الاعتقاد بأيّ موجودٍ أعلى، نذكر هنا بعض ما قاله دوكينز؛ ليتبيّن كيف استفاد الملحدون من نظريّة التطوّر في نفي برهان النظم ودعم الرؤية الإلحاديّة.

يقول دوكينز في توضيح سبب اختيار هٰذه التسميّة لكتابه: «وصانع الساعات في عنوان كتابي قد اقترضته من رسالةٍ مشهورةٍ لوليم بالي (Wiliam Paley) عالم اللاهوت في القرن الثامن عشر، وهي رسالة اللاهوت الّتي نشرت في 1802، وهي أحسن عرضٍ معروفٍ لحجّة التصميم» [دوكنز، الداروينيّة الجديدة.. صانع الساعات الأعمى، ص 25]

ثمّ يعلّق على محاجّة بالي: «... ولٰكن التمثيل بين التلسكوب والعين، وبين الساعة والكائن الحيّ، هو تمثيلٌ زائفٌ، فصانع الساعات الحقيقيّ له تبصّرٌ للأمام، فهو يصمم تروسه ونوابضه، ويخطّط ما بينها من ترابطاتٍ، وقد وضع نصب عينيه هدفًا مستقبليًّا، أمّا ما يصنع الساعات في الطبيعة ـ وهو الانتخاب الطبيعيّ، تلك العمليّة الأتوماتيكيّة العمياء غير الواعية الّتي اكتشفها داروين، والّتي نعرف

الآن أنّها تفسّر بيولوجيا الحياة ـ فليس له عقلٌ فيه هدفٌ، إنّه بلا عقلٍ، وبلا عينٍ لعقلٍ، وهو لا يخطّط للمستقبل، وليست له رؤيةٌ، ولا بصيرٌ للأمام، ولا بصرٌ على الإطلاق، وإذا كان من الممكن أن يقال عنه إنّه يلعب دور صانع الساعات في الطبيعة، فهو صانع ساعاتٍ أعمى» [المصدر السابق، ص 26].

يعتقد دوكينز أنّ العلماء السابقين مثل ديفيد هيوم (David Hume)، بردّهم لأدلّة وجود الإله، كانوا يدخلون إلى وادي الشكّ واللاأدريّة، ولا يستطيعون الخروج منه، لٰكن مع ظهور داروين ونظريّة التطوّر، لم يبق مجالٌ للشكّ، ومع ردّ الصدفة والناظم الهادف، يمكن الاعتقاد بالخيار الثالث، أي الانتقاء الطبيعيّ. [المصدر السابق، ص 27]

ثمّ يوضّح كيف يمكن لنظريّة التطوّر أن تكون مبيّنةً للنظم في الكائنات الحيّة: «رأينا كيف أنّ الأشياء الحيّة هي على درجةٍ من قلّة الاحتمال وجمال التصميم، بحيث لا يمكن أن تتكوّن صدفةً، فكيف تكوّنت إذن؟ والإجابة حسب داروين، هي بواسطة تحوّلاتٍ تدريجيّةٍ خطوةً فخطوةً من بداياتٍ بسيطةٍ، من كياناتٍ أوّليّةٍ بالغة البساطة. وكلّ تغيّرٍ متتالٍ في العمليّة التطوّرية التدريجيّة، هو من البساطة بالنسبة لسابقه بما يكفي لإمكان أن ينشأ صدفةً» [المصدر السابق، ص 73].

«والفارق الرئيسيّ بين الانتخاب بخطوةٍ واحدةٍ والانتخاب التراكميّ، هو التالي: الكيانات في الانتخاب بخطوةٍ واحدةٍ، الّتي تنتخب أو تفرز... يتمّ فرزها مرّةً واحدةً ونهائيّةً، ومن الناحية الأخرى، فإنّ الكيانات في الانتخاب التراكميّ تتكاثر، أو بطريقةٍ أخرى، فإنّ نتائج عمليّة الغربلة تلقم إلى غربلةٍ تاليةٍ، هي بدورها تلقم إلى...، وهلّم جرًّا، وتتعرّض الكيانات إلى الانتخاب بالفرز عبر أجيالٍ كثيرةٍ في تعاقبٍ، والمنتج النهائيّ لجيل الانتخاب هو نقطة البداية لجيل الانتخاب التالي، وهٰكذا دواليك لأجيالٍ كثيرةٍ» [المصدر السابق، ص 76].

«هناك إذن فارقٌ كبيرٌ بين الانتخاب التراكميّ، حيث يستخدم كلّ تحسينٍ

مهما كان صغيرًا، كأساسٍ للبناء في المستقبل، والانتخاب بخطوةٍ واحدةٍ، حيث كلّ محاولةٍ جديدةٍ هي محاولةٌ حديثةٌ، ولو كان على التقدّم بالتطوّر أن يعتمد على الانتخاب بخطوةٍ واحدةٍ، لما وصل إلى شيءٍ. أمّا إذا كانت ثمّة طريقةٌ ـ حيث يمكن أن تقام الظروف الضروريّة للانتخاب التراكميّ بقوى الطبيعة العمياء ـ فإنّ النتائج قد تصبح غريبةً مدهشةً، وواقع الأمر أنّ هٰذا هو ما حدث بالضبط فوق هٰذا الكوكب... وهٰذا الاعتقاد بأنّ التطوّر الداروينيّ عشوائيٌّ، ليس مجرّدَ اعتقادٍ زائفٍ، بل إنّه عكس الحقيقة بالضبط، فالمصادفةُ عنصرٌ ضئيلٌ في الوصفة الداروينيّة، أمّا أهمّ عنصرٍ لها، فهو الانتخاب التراكميّ الّذي هو في جوهره لاعشوائيٌّ» [المصدر السابق، ص 81].

ومن ثَمَّ، فإنّ عمليّة الانتقاء الطبيعيّ مع أنّها لم تكن مصمّمةً وموجّهةً، لٰكن تسير بنحوٍ بحيث تبدو وكأنّها عمليّةٌ منظّمةٌ ومصمّمةٌ.

3 ـ نظريّة التصميم الذكيْ وجهٌ آخر لبرهان النّظم

أ- السير التاريخيّ لنظريّة التصميم الذكيّ

برهان النَّظم اعتمد من قبل جملةٍ من الفلاسفة والمتكلّمين لإثبات واجب الوجود، وقُرّر كالتالي:

الصغرى: هٰذا العالم منظَّمٌ.

الكبرى: كلّ منظَّمٍ يحتاج إلى مُنظِّمٍ.

النتيجة: هٰذا العالم له منظِّمٌ. [انظر: مطهري، التوحيد، ص 31 و58]

وبتطوّر العلوم الطبيعيّة أدّى ذٰلك إلى تطوّر برهان النظم من حيث الصغرى، إذ إنّ النهضة الفكريّة في هٰذا المجال، ظهرت بعد النزاعات الّتي حصلت حول إمكانيّة تدريس نظريّة الخلقيّة في المدارس الأمريكيّة في سنة 1987 في ولاية

أركنساس، مع ذٰلك، فإنّ أصحاب هٰذه الحركة يعتقدون بوجود جذورٍ أقدم لها ترجع إلى الفلسفة اليونانيّة القديمة.

كما وإنّ التقارير الأوّليّة لهٰذا البرهان قد عرضت في كتاب "لغز منشإ الحياة" (The Mystery of Life's Origin) للمؤلّفين تشارلز تاكستون (Charles Thaxton) والتر برادلي (Walter Bradley) وروجر أولسون (Roger Olsen)، وذٰلك قبل محاولات الخلقيّين في ولاية أركنساس، أي في سنة 1984.

[EUGENIE C. SCOTT, EVOLUTION VS CREATIONISM: AN INTRODUCTION, P 116]

في عام 1989 طبع كتاب (من الباندا والناس) لمؤلّفيه دين كينيون (Dean H. Kenyon) وبرسيفال دافيس (Percival Davis)، واستطاع هٰؤلاء أن يدخلوه ضمن المواد الدراسيّة للمدارس، الأمر الّذي يُعدّ منعطفًا في تاريخ الصراع بين الخلقيّين ـ بالمعنى الأعمّ ـ والتطوّريّين، تعرّض هٰذا الكتاب لنقد نظريّة التطوّر من دون الاستناد إلى الكتاب المقدّس والتصريح بذكر الإلٰه، وذٰلك بخلاف أسلوب الخلقيّين في نقد نظريّة التطوّر.

لٰكنّ التكوّن الحقيقيّ لهٰذه الحركة إنّما يرجع إلى سنة 1991، والعالم فيليب جونسون (Phillip E. Johnson) ـ الأستاذ في كلّيّة القانون لجامعة بيركلي ـ حينما ألّف كتاب "داروين في المحكمة" (Darwin on Trial).

ثم ارتبط جونسون بسرعة مع ستيفن ماير (Stephen C. Meyer) الفيلسوف ووليام ديمبسكي عالم الرياضيات والفيلسوف الإلٰهيّ، ومايكل بيهي (Michael Behe) عالم الأحياء وآخرين، وفي سنة 1993 طرح بيهي مفهوم التعقيدات غير القابلة للاختزال، الأمر الّذي جعل التطوّريين يشعرون بالخطر وينشرون كتبًا ومقالاتٍ في ردّه.

في عام 1995 أُسّس مركز تجديد العلم والثقافة (Center for Renewal of Science and Culture)، ممّا ساهم في حصول التنسيق الأكثر في عمل

أصحاب النظريّة، يتّفق أصحاب النظريّة مع المنتقدين لها بأنّ أهمّ مركزٍ يرعى ويدعم النظريّة هو مركز العلم والثقافة (Center for Science and Culture) ـ المعروف سابقًا بمركز تجديد العلم والثقافة ـ التابع لمعهد دسكفري (Discovery Institute).

هٰذه الحركة أيضًا حظيت بدعم فلاسفةٍ مسيحيّين كبارٍ مثل ألفين بلانتينجا (Alvin Plantinga) ومورلند (J. P. Moreland) وكرايغ (Craig). [زارع، طراحی هوشمند: طرح و بررسی دیدگاه الیوت سوبر، پژوهشنامه فلسفه دین، پاییز و زمستان 1395، ص 125]

ب ـ تقرير النظريّة

يتوقّف تبيين هٰذه النظريّة على تعريف مصطلح البِنى المعقّدة غير القابلة للاختزال بعنوانه مبدأً تصوريًّا لهٰذه النظريّة، تتميّز البِنى غير القابلة للاختزال بأنّ العلاقة الموجودة بين أجزائها بنحوٍ بحيث لو حُذف أحد الأجزاء فستفقد هٰذه البِنى وظيفتها تمامًا، فيمكن تعريف هٰذه الأنظمة كالتالي: نظامٌ واحدٌ مكوّنٌ من أجزاءٍ متعدّدةٍ مترابطةٍ جيّدًا ومتفاعلةٍ فيما بينها وتساهم في الوظيفة الأساسيّة، وإزالة أيّ جزءٍ منه يعني توقّف النظام عن العمل. [بیهي، صندوق داروين الأسود.. تحدّي الكيمياء الحيويّة لنظريّة التطوّر، ص 61]

بناءً على ما أشرنا إليه آنفًا، تبيّن أنّ هٰذه البِنى تتميّز بخصوصيّتين:

الأولى: أنّها معقّدةٌ؛ فلا يمكن تبيين تكوينها على أساس الصدفة.

الثانية: أنّها غير قابلةٍ للاختزال؛ ولهٰذا ستكون نظريّة الانتقاء الطبيعيّ عاجزةً عن تبيين كيفيّة إيجادها، والسبب في هٰذا الأمر يرجع إلى أنّ الأنظمة الحيويّة المتكفّلة بوظيفةٍ خاصّةٍ، بعد تعرّضها لطفراتٍ جينيّةٍ، ستكوّن ـ بناءً على نظريّة التطوّر ـ نظامًا جديدًا يمكن أن يكون أعقد من سابقه، لٰكنّ هٰذا الأمر إنّما يحصل إذا كان النظام السابق مؤدّيًا لوظيفةٍ ما، ومع التغيّرات الحاصلة فيه

يحصل على وظيفةٍ جديدةٍ، لٰكن بناءً على تعريف الأنظمة المعقّدة غير القابلة للاختزال، أنّها فاقدةٌ لحالةٍ سابقةٍ فاعلةٍ؛ لأنّه بحذف كلّ جزءٍ منها، ستفقد فاعليتها ووظيفتها كلّيًّا؛ ولهٰذا فإنّ التبيين الوحيد لهٰذه الأنظمة، إنّما يكون من خلال تدخّل مصمّمٍ ذكيٍّ.

هٰذا في الحقيقة يشكّل لنا كبرى القياس الناقض لكلّيّة نظريّة التطوّر، بأنّ كلّ تعقيدٍ غير قابلٍ للاختزال، فإنّه محتاجٌ إلى مصمّمٍ ذكيٍّ، ولا يقبل التفسير من خلال نظريّة التطوّر، وأمّا صغرى القياس، فتحصل من خلال البحث عن وجود هٰذه الأنظمة في الطبيعة، فإذا وجدت فلا بدّ حينها من قبول فكرة المصمّم الذكيّ.

يعتقد أصحاب نظريّة التصميم الذكيّ أنّه يوجد نماذج كثيرةٌ من هٰذه التعقيدات في الطبيعة، مثل ما نراه في تركيبة البروتينات الموجودة في الخلايا، وآليّة توجيه البروتين، وشلّال التخثّر، وسلسلة نقل الإلكترون، والسوط البكتيريّ، والقُسَيْم الطَرَفِيّ (Telomere)، وعمليّة البناء الضوئيّ وغير ذٰلك.

[MICHAEL J. BEHE, «MOLECULAR MACHINES», IN: PENNOK, ROBERT T. (ED), INTELLIGENT DESIGN CREATIONISM AND ITS CRITICS: PHILOSOPHICAL, THEOLOGICAL, AND SCIENTIFIC PERSPECTIVES, P 252]

بناءً على هٰذا، تكون الصورة المنطقيّة للبرهان كالتالي:

1) توجد في الكائنات الحيّة بِنًى معقّدةٌ غير قابلةٍ للاختزال.
2) لا يخلو السبب الموجد لهٰذه البِنى من ثلاثة فروضٍ: إمّا الصدفة، وإمّا عمليّة التطوّر، وإمّا المصمّم الذكيّ.
3) افتراضُ التطوّر مرفوضٌ؛ لما بيّنّاه في تعريف هٰذه البِنى.
4) افتراض الصدفة أيضًا بدرجةٍ من الضآلة، بحيث لا يتقبّله أيّ إنسانٍ عاقلٍ.
5) من خلال ردّ الفرضين السابقين يثبت الفرض الثالث ألا وهو المصمّم الذكيّ، وبذٰلك يثبت كونه هو السبب الموجد لهٰذه الأنظمة.

جـ - الإشكالات المطروحة على نظريّة التصميم الذكيّ

الإشكال الأوّل: التبيين على أساس وجود أجزاءٍ سابقةٍ

يعتقد بعضٌ أنّ دراسة تركيبة الخليّة والأجزاء المكوّنة للأنظمة غير القابلة للاختزال، تبيّن أنّ هٰذه الأجزاء لم تكن مختصّةً بهٰذه الأنظمة، بل إنّها قد تكون داخلةً في بِنًى أخرى، على سبيل المثال: أنّ البروتينات المتشابكة (Cross-linking proteins) التي تعتبر من الأنظمة المعقّدة غير القابلة للاختزال، يمكن مشاهدتها ضمن تركيبٍ جزئيٍّ في الخلايا البكتيريّة يسمّى النظام الإفرازيّ الثالث (Type III secretion system)؛ ولذا فمن الممكن أن تكون الأجزاء المكوّنة للأنظمة غير القابلة للاختزال، قد كُوّنت أوّلًا في بِنًى قابلةٍ للاختزال، ومن ثمّ رُكّبت في بِنيةٍ أخرى بوظيفةٍ أخرى على أساس قانون الانتقاء الطبيعيّ.

[EUGENIE C. SCOTT, EVOLUTION VS CREATIONISM: AN INTRODUCTION, P 118]

الإجابة

أوّلًا: هٰذا الكلام هو مجرّدُ احتمالٍ، ولا يقدّم أيّ تبيينٍ واضحٍ لهٰذه التغييرات.

ثانيًا: كما أشرنا سابقًا أنّ البِنية غير القابلة للاختزال لا تكون فاعلةً إلّا إذا كانت جميع أجزائها مكتملةً في الوقت نفسه، طبعًا يمكن لنا القول إنّ الاحتمال في الفرض المطروح من قبل المستشكل، أكثر من الحالة الّتي يفترض فيها أن تجتمع جميع الأجزاء من دون سابقةٍ، وبنحوٍ بدئيٍّ، لٰكن يبقى الاحتمال ضئيلًا جدًّا بحيث لا يمكن اعتباره أمرًا معقولًا ومنطقيًّا.

ثالثًا: في هٰذا الاحتمال قد فرض وجود الخليّة قبل إيجاد هٰذه الأنظمة المعقّدة، والخليّة في أبسط صورها تعدّ من الأنظمة المعقّدة غير القابلة للاختزال، ولا يمكن أن يوضّح إيجادها من خلال الانتقاء الطبيعيّ.

الإشكال الثاني: إمكان التبيين العلميّ في المستقبل (إشكاليّة إلٰه الفراغات)

قد أذعن بعض أصحاب نظريّة التطوّر، أنّ المعطيات العلميّة الحاليّة ليست قادرةً على تبيين هٰذه الأنظمة، لٰكن يدّعي هٰؤلاء أنّ الجهود العلميّة للعلماء ستؤدّي إلى تبيين هٰذه الأنظمة من خلال نظريّة التطوّر.

[CHRISTIAN C. YOUNG AND MARK A. LARGENT, EVOLUTION AND CREATIONISM: A DOCUMENTARY AND REFERENCE GUIDE, P 280]

وحتّى مع فرض رفض التطوّر تمامًا، لا يمكن اللجوء إلى المصمّم الذكيّ؛ لأنّ الآليّات الطبيعيّة ليست مقتصرةً على نظريّة التطوّر، ومن الممكن أن نتعرّف على آليّاتٍ جديدةٍ تشبه الانتقاء الطبيعيّ. إنّ انتساب هٰذه الأنظمة إلى عوامل ما ورائيّةٍ، في الحقيقة هو استفادةٌ من مفهوم إلٰه الفراغات (God of the gaps)، الّذي أوقع مؤيّدي هٰذا المفهوم في عواقب غير محمودةٍ على مرّ التاريخ.

الإجابة

إنّ مجرّد احتمال التبيين العلميّ لهٰذه البِنى في المستقبل، لا يضرّ بالاستدلال؛ لأنّ الاستدلال مبتنٍ على أفضل تبيينٍ ممكنٍ، وعلى أساس المعطيات الموجودة يكون هٰذا أفضل تبيينٍ ممكنٍ، هٰذا فيما إذا لم يثبت من خلال دليلٍ آخر لزوم التبيين الطبيعيّ للظواهر الطبيعيّة، وإلّا لو ثبت ذٰلك، فسيكون التبيين الماورائيّ من موارد إلٰه الفراغات قطعًا، وكما يظهر فإنّ نظريّة التصميم الذكيّ ـ بناءً على التقرير المتداول ـ تطرح مسألة التبيين الماورائيّ للظواهر الطبيعيّة في صعيدين: العلّة الفاعليّة الماورائيّة، الّتي تتدخل في الظواهر الطبيعيّة لتوجد النَّظمِ فيها بعد أن كانت غير منظّمة. والتبيين الماورائيّ الغائيّ المباشر لهٰذه الأنظمة، فلا بدّ من دراسة المسألة على الصعيدين، وتكون صحّة النظريّة مرهونةً بإثبات إمكانها في كليهما، بالنسبة للصعيد الثاني (التبيين الماورائيّ الغائيّ المباشر للأنظمة الطبيعيّة المتكثرة) فالظاهر أنّه لا دليل عقلًا على المنع؛ ولذا فإنّ إشكاليّة إلٰه الفراغات لا ترد على النظريّة من هٰذه الجهة.

أمّا بالنسبة للصعيد الأوّل، فلا بدّ من الرجوع إلى العلوم العقليّة لتكون هي المرجع النهائيّ لتحديد الموقف، لٰكن هنا توجد آراءٌ مختلفةٌ، فمثلًا ذهب بعضٌ ـ كالعلّامة الطباطبائيّ ـ إلى عدم إمكان التدخّل المباشر للعلّة الفاعليّة الماورائيّة في الظواهر الطبيعيّة [مطهرى، مجموعه آثار استاد شهيد مطهرى، ج 6، ص 1061] بناءً على بعض تصريحاته بخلاف بعضها الآخر، وعلى كلّ حال، فالمسألة تحتاج إلى دراسةٍ أعمق، ومن ثَمَّ لا يمكن لنا الجزم هنا إثباتًا أو نفيًا[1]. لٰكن نقول إنّ النظريّة يمكن أن تستقيم من دون القول بلزوم التدخّل الفاعليّ الماورائيّ المباشر عقلًا ـ بأن يقال إنّ هٰذه الأنظمة المتكثّرة أودعت في الطبيعة منذ خلقة الكون ـ ولا يوجد حاجةٌ لفرض التدخّل الماورائيّ الفاعليّ المباشر، وبذٰلك ستتخلّص النظريّة من إشكاليّة إلٰه الفراغات تمامًا؛ لأنّ بناءً على هٰذا التقرير ستكون صحّة النظريّة مرهونةً بإثبات إمكانها في الصعيد الثاني فقط، وقد ثبت ذٰلك.

الإشكال الثالث: عدم الالتفات إلى القيمة العلميّة لنظريّة التطوّر

من أهمّ الإشكالات الموجّهة إلى نظريّة التصميم الذكيّ، هو أنّ المنظّرين لها لم ينتبهوا إلى القيمة العلميّة لنظريّة التطوّر، ولا يمكن اعتبار هٰذه النظريّة مجرّد فرضيّةٍ إلى جانب سائر الفرضيّات، وأنّ الشواهد العلميّة الهائلة المطروحة في تأييد هٰذه النظريّة تمنعنا أن نعتبرها فرضيّةً قابلة للنقاش. نعم، من الممكن أن يحصل بعض التعديلات على بعض الجوانب الفرعيّة تأثّرًا بالشواهد العلميّة الآتية، لٰكنّ هٰذا لا يجعل النظريّة فاقدةً للاعتبار؛ لأنّ النظريّات العلميّة بطبيعتها تقبل

(1) قد بحثت هٰذه المسألة تفصيلًا في بحث التخرّج التالي: ... واستنتج عدم استحالة هٰذه المسألة فلسفيًّا، كما أنّه دُرست مجموع أقوال العلّامة الطباطبائي، واستنتج أنّ رأيه الحقيقيّ ليس المفهوم من ظاهر كلامه في المصدر المشار إليه، والّذي يقول بالاستحالة.

التعديل والإصلاح؛ ولذا فلا يمكن أن نجد أيّ نظريّةٍ علميّةٍ تطرح بقطعيّةٍ تامّةٍ.
[NATIONAL ACADEMY OF SCIENCES AND INSTITUTE OF MEDICINE, SCIENCE, EVOLUTION, AND CREATIONISM, P 11]

علم الأحافير، والكيمياء، والفيزياء، والكيمياء الحيويّة، وعلما الأحياء والفلك... كلّها تشهد بأنّه يفترض عدم التحدّث عن أصل وقوع التطوّر، بل لا بدّ من التحدّث عن كيفيّة وقوع التطوّر فحسب.

من جهةٍ أخرى، فإنّ نظريّة التطوّر تمتلك مِلاكًا آخر من ملاكات صحّة النظريّة العلميّة، وهي معيار إنتاج تنبّؤاتٍ قابلةٍ للملاحظة والرصد، ويستطيع العلماء اليوم التنبّؤ بالمنطقة والطبقة الرسوبيّة الّتي تحتمل وجود أحفورةٍ معيّنةٍ فيها، والعثور على تيكتاليك[1] هو أحد هٰذه الموارد، الّتي كان يعلم العلماء أنّ العثور عليها يتطلّب البحث في المنطقة الشماليّة من كندا، وبالفعل وجدت هناك.
[IBID, P 2]

الإجابة:

يظهر أنّ هٰؤلاء الّذين أطنبوا في طرح الشواهد المؤيّدة لنظريّة التطوّر في مقابل أصحاب نظريّة التصميم الذكيّ، لم يكونوا قد التفتوا إلى أصل مدّعى نظريّة التصميم الذكيّ، فمن خلال مراجعة نظريّة التصميم الذكيّ، يتبيّن أنّ الاستدلال المذكور لها، لا يتنافى مع وقوع التطوّر في الكون بتاتًا، وإنّما إشكاله على عموميّة نظريّة التطوّر فحسب، فمثلًا يقول مايكل بيهي: «أنا تطوريٌّ، بمعنى أنّي أعتقد أنّ الانتقاء الطبيعيّ قادرٌ على تبيين بعض الظواهر الطبيعيّة، لٰكن في نظري أنّ الشواهد دالّةٌ على أنّ الانتقاء الطبيعيّ من شأنه أن يبيّن التغييرات الجزئيّة فقط،

(1) TICTAALIK: سمكةٌ تميّزت بالأقدام، وهي من الحيوانات المنقرضة، ويعتقد العلماء بأنّها يمكن أن تمثّل أحد أهمّ أجداد الحيوانات البريّة عندما بدأت بالخروج من الماء إلى اليابسة.

وأرى أنّه يواجه مشاكل كثيرةٌ في تبيين التغييرات الأكبر».

[MICHAEL RUSE, «THAT INTELLIGENT DESIGN REPRESENTS A SCIENTIFIC CHALLENGE TO EVOLUTION», IN: RONALD L. NUMBERS (ED), GALILEO GOES TO JAIL AND OTHER MYTHS ABOUT SCIENCE AND RELIGION, P 211]

من جهةٍ أخرى لا بدّ من الانتباه إلى أنّ دعوى قطعيّة وقوع التطوّر تبدو مبكّرةً ومتسرّعةً، وما زالت نظريّة التطوّر تعاني من إبهاماتٍ وإشكالاتٍ كثيرةٍ، ومع الأسف أنّ هٰذه الإبهامات قد أغفلت من جانب بعضهم تعمّدًا، وبعض نقاط الإبهام في نظريّة التطوّر هي كالتالي: عدم العثور على بعض حلقات الوصل، وفقدان الشواهد الأحفوريّة على إثبات التطوّر على المستوى الخلويّ، وعدم تبيين مسألة لغز بداية الحياة بطريقٍ معقولٍ.

من جهةٍ أخرى قد وفّرت التقارير الأحفوريّة الحديثة شواهد جديدةً لصالح نظريّة التصميم، تقول هٰذه التقارير إنّ في بداية العصر الكامبريّ تقريبًا ـ أي قبل 530 مليون سنةٍ ـ قد حدث انفجارٌ بيولوجيٌّ عظيمٌ (biological big bang) يسمّى بالانفجار الكامبريّ (Cambrian explosion) ما أدّى إلى ظهور خمسين نوعًا حيوانيًّا من دون أن يكون لهم أيّ مرحلةٍ تطوريّةٍ سابقةٍ.

[BARBARA FORREST, «THE WEDGE AT WORK», IN: PENNOK, ROBERT T. (ED), INTELLIGENT DESIGN CREATIONISM AND ITS CRITICS: PHILOSOPHICAL, THEOLOGICAL, AND SCIENTIFIC PERSPECTIVES, P 20]

مضافًا إلى أنّ غاية ما يمكن أن تدلّ عليه القرائن الأحفوريّة، هو قطعيّة حصول التطوّر في الفترات السابقة، لٰكن هٰذا لا يدلّ على عدم وجود أيّ عمليةٍ أخرى، سواءٌ كانت طبيعيّةً أم غير طبيعيّةٍ، على سبيل المثال: نتساءل هل الشواهد الأحفوريّة الموجودة قادرةٌ على إنكار الخلقة الحاصلة لآدم وحوّاء بالنحو المذكور في الكتب السماويّة للأديان الإبراهيميّة؟ مجموع هٰذه المسائل ومسائل كثيرةٌ أخرى كلّها تدلّ على أنّه لم يحن الوقت بعد لإعلان قطعيّة نظريّة التطوّر.

الإشكال الرابع: عدم علميّة نظريّة التصميم الذكيّ

من أهمّ الإشكالات المطروحة في مقابل هٰذه النظريّة، هو عدمُ علميّتها، ويدّعون أنّ هٰذه النظريّة في الحقيقة استمرارٌ لعلم الخلق، والّذي كان يسعى أن يطرح المعتقدات الدينيّة المأخوذة من ظاهر الكتاب المقدّس في قالبٍ علميٍّ؛ لكي يتمكّـن من خلال هٰذا الظاهر العلميّ، من أن يحصل على رخصةٍ لتدريسها في المدارس في بعض البلدان، ومن ثمَّ كما أنّ علم الخلق يدخل ضمن النظريّات المذهبيّة لا العلميّة.

[CHRISTIAN C. YOUNG AND MARK A. LARGENT, EVOLUTION AND CREATIONISM: A DOCUMENTARY AND REFERENCE GUIDE, P 227]

فكذٰلك الحال بالنسبة إلى نظريّة التصميم الذكيّ.

الإجابة:

أوّلًا: أنّ إثبات علميّة نظريّةٍ ما ـ مضافًا إلى أنّه لم يعتبر من نقاط قوّة تلك النظريّة ـ يمكن اعتباره عاملًا للحطّ من شأنها أيضًا؛ وذٰلك أنّ العلم ـ بالمعنى الأكاديميّ ـ يعاني من محدوديّاتٍ ذاتيّةٍ فيه، طبعًا لا بدّ من الالتفات إلى أنّ ما قلناه من تنزّل شأن النظريّة بتبع إثبات علميّتها، لا يتنافى مع ترتّب بعض الفوائد على إثبات العلميّة لها، فمثلًا في مقابل الّذين لا يعتقدون إلّا بالأسلوب العلميّ يكون إثبات علميّتها نافعًا، ومن جهةٍ أخرى أنّ إثبات علميّتها سيفتح الطريق أمامها؛ لكي تدرس في المراكز العلميّة في بعض البلدان.

ثانيًا: إذا أمعنّا النظر في هٰذا النظريّة فسوف نجد أنّ لها حيثيّتين: الحيثيّة النافية، وهي الّتي تختصّ ببيان عجز نظريّة التطوّر في تبيين بعض الظواهر، والحيثية الإثباتيّة، وهي الّتي تقوم بتقديم البديل، أمّا بالنسبة للجهة النافية، فلا يوجد أيّ دليلٍ يدلّ على عدم علميّتها، فالكلام كلّه يدور حول الحيثيّة الإثباتيّة، وأمّا بالنسبة

للحيثيّة الإثباتيّة، فنقول إنّه لا بدّ من تحديد التعريف الدقيق للعلم أوّلًا.

هنا نقول قد عُرّف العلم بتعاريف مختلفةٍ، فبعضٌ أخذ قيد التبيين الطبيعيّ للظواهر في التعريف، وعلى هٰذا تكون نظريّة التصميم الذكيّ خارجةً عن تعريف العلم، وبعضٌ آخر لم يأخذ هٰذا القيد في التعريف، فتكون النظريّة المذكورة داخلةً في تعريف العلم، فعلى سبيل المثال: أنّ مجلس إدارة ولاية كانساس في عام 2005، بحذفه لقيد التبيين المادّيّ (Natural explanation) من تعريف العلم، فتح المجال لتدريس هٰذه النظريّة في المراكز التعلميّة.

[MICHAEL RUSE, «THAT INTELLIGENT DESIGN REPRESENTS A SCIENTIFIC CHALLENGE TO EVOLUTION», IN: RONALD L. NUMBERS (ED), GALILEO GOES TO JAIL AND OTHER MYTHS ABOUT SCIENCE AND RELIGION, P 213]

الإشكال الخامس: النواقص الموجودة في الأنظمة الطبيعيّة

بعد ما نشر كتاب (من الباندا والناس) (Of Pandas and People) وُجّهت انتقاداتٌ كثيرةٌ لهٰذا الكتاب، وكان ستيفن جاي غولد (Stephen J Gould) أحد المنتقدين المشهورين لهٰذا الكتاب، وقام بنشر كتاب (إبهام الباندا) (The Panda's Thumb) في هٰذا المضمار، فمن الانتقادات التي وجّهها غولد إلى نظريّة التصميم الذكيّ، عدم انسجام بعض الأنظمة مع افتراض وجود المصمّم.

استفاد غولد لبيان هٰذه المسألة من مثال إبهام الباندا الّذي يستفيد منه لتقشير سوق الخيزران ليصل إلى براعمها، وهو الجزء الوحيد منها الّذي يتناوله، في الحقيقة أنّ هٰذا الإبهام ليس إصبعًا، بل هو عبارةٌ عن استطالةٍ للعظم السمسمانيّ (Radial Seamoid) الّذي يكون عادةً في سائر الحيوانات القريبة من الباندا جزءًا صغيرًا من الزند.

يدّعي غولد أنّه بعد دراسة أداء هٰذا العضو، توصّل إلى عدم إمكان تصوّر تدخّل مهندسٍ مختصٍّ في عمليّة تكوين هٰذا العضو؛ لأنّه يمكن ببساطةٍ تصوّر

نموذجٍ أكمل وأفضل لأداةٍ تستخدم لأداء هٰذه الوظيفة.

توجد أمثلةٌ كثيرةٌ أخرى من هٰذا القبيل، ويمكن العثور عليها من خلال شيءٍ من الإمعان والتدقيق في الطبيعة.

[STEVEN JAY GOULD, «THE PANDA'S THUMB», IN: PENNOK, ROBERT T. (ED), INTELLIGENT DESIGN CREATIONISM AND ITS CRITICS: PHILOSOPHICAL, THEOLOGICAL, AND SCIENTIFIC PERSPECTIVES, PP 671-676]

يقول دوكينز في هٰذا الخصوص: «ستيفن جولد في بحثه الممتاز عن إبهام الباندا، يوضّح الرأي بأنّ التطوّر يمكن دعمه بصورةٍ أقوى من أوجه العيب الكاشفة هٰذه أكثر ممّا بأدلّة من أوجه الكمال» [هشام عزمي، التطوّر الموجه بين العلم والدين، ص 172].

المثال الآخر هو مسألة موت جلّ أفراد بعض الحيوانات، مثل: الأسماك، والسلاحف... قبل وصولهم لسنّ البلوغ.

يتمّ طرح هٰذه الأدلّة على أنّها تمثّل البرهان على كون الكائنات الحيّة لا تتّصف بالدقّة والإحكام والكمال، ومن ثَمَّ فهي أقرب إلى أن تكون نتاجًا للعشوائيّة المتمثّلة في نظريّة التطوّر عن أن تكون من صنع الخالق الحكيم.

الإجابة:

أوّلًا: في كثير من الموارد الّتي نتصوّر فيها أنّ الأنظمة الموجودة غير كاملةٍ، بالتدقيق سترتفع هٰذه النظرة، على سبيل المثال إلى فترةٍ غير بعيدةٍ، كان التصوّر حول الزائدة الدوديّة أنّها عضوٌ زائدٌ في جسم الإنسان، وليس لها أيّ دورٍ مفيدٍ فيه، لٰكن أظهرت التطوّرات العلميّة أنّ هٰذا العضو يشتمل على خلايا تلعب دورًا معيّنًا في مناعة جسم الإنسان.

ثانيًا: إن كان الغرض من هٰذا الإشكال هو تقوية نظريّة التطوّر، فلا بدّ من القول إنّ أصحاب نظريّة التصميم الذكيّ لا ينفون نظريّة التطوّر كلّيًّا، وذكر موارد جزئيّةٍ في الطبيعة لتأييد نظريّة التطوّر، لا يضرّ باستدلالهم، إلّا أن تكون هٰذه

الموارد هي الّتي ذكرت بوصفها بِنًى معقّدةً غير قابلةٍ للاختزال، الأمر الّذي لم يحصل هنا، وإن كان الغرض هو بيان التعارض بين فكرة التصميم الذكيّ ووجود النقص في الطبيعة، فنقول قد حصل خلطٌ في الإشكال بين مفهوم التصميم الذكيّ والتصميم الأمثل، أو بعبارةٍ أخرى بين نظريّة التصميم الذكيّ ـ بوصفه قراءةً من برهان النَّظمِ ـ وبرهان النظام الأحسن للوجود. فنظريّة التصميم الذكيّ غرضها إثبات المصمّم الذكيّ، وهٰذا يكفيه وجود التصميم في الطبيعة، ولو لم يكن في أحسن صوره، ولم يكن شاملًا لجميع الطبيعة، فلا بدّ من التمييز بين المفهومين.

ثالثًا: أنّ هٰذا الإشكال يمكن أن يدخل ضمن مسألة الشرور، والإجابات المطروحة من قبل العلماء الإلٰهيّين في هٰذا المجال، يمكن ذكرها هنا أيضًا.

النتيجة

تبيّن ـ ممّا ذكر ـ أنّ هٰذا التقرير يصلح لأن يكون أحد العلاجات للإشكال المطروح من قبل نظريّة التطوّر على التقرير التقليديّ لبرهان النَّظمِ؛ وذٰلك أنّ البِنى المعقّدة غير القابلة للاختزال ـ التي تمّ التركيز عليها في هٰذا التقرير ـ لا يمكن تبيينها على أساس آليّة الانتقاء الطبيعيّ، ومن هنا يحذف الخيار الثالث، أي التبيين على أساس الآليّات الطبيعيّة، ومن ثَمَّ تكون الخيارات محصورةً في الصدفة والناظم الهادف، ويرتفع الإشكال المطروح، كما تبيّن أنّ الإشكالات الموجّهة لهٰذه النظريّة غير واردةٍ.

لٰكن نضيف هنا أنّ التحليل الأدقّ لنظريّة التطوّر ـ والأشكال الّتي يمكن أن تنشأ من خلالها ـ هو أنّ هٰذه النظريّة استخدمت استراتيجيّة الاستعانة بالطريق غير المباشر في تبيين النَّظمِ، بيان ذٰلك أنّه يمكن تصوّر طريقين للحصول على النَّظمِ في الطبيعة: إمّا الطريق المباشر، أي تكوّن ذٰلك النَّظمِ بنحوٍ مباشرٍ، وإمّا الطريق غير المباشر، وهو أن يتكوّن عددٌ كبيرٌ من الوحدات ـ أو الكيانات ـ مع

تغيّراتٍ اتّفاقيّةٍ في عمليّة التكوين؛ لتحصل الشموليّة للحالات المختلفة، ومن ثمّ تنتقى الحالة المنظّمة من خلال عمليّة الانتقاء الطبيعيّ؛ ولذلك فإنّ ما يمكن افتراض كونه تبيينًا لإيجاد الكيان المنظّم هو التكرار الهائل لعمليّة تكوّن الوحدات مع تغيّراتٍ اتّفاقيّةٍ[1]، أمّا الانتقاء الطبيعيّ، فلا دور له في هٰذا المجال، فدور الصدفة في إيجاد الكيان المنظم إنّما يقلّ من خلال التكرار في عمليّة تكوّن الوحدات، فكلّما تكرّرت هٰذه العمليّة، قلّ دور الصدفة.

ومن هنا يتبين أنّ كلام دوكينز الّذي ينسب مسألة تقليل دور الصدفة إلى الانتقاء الطبيعيّ ـ أو الانتخاب ـ غير تامٍّ؛ لأنّ عمليّة الانتقاء الطبيعيّ يقتصر دورها في حذف الكيانات الأقلّ نظمًا؛ ولهٰذا تفسّر الوضع الحاليّ الّذي يغلب فيه وجود الكيانات المنظّمة، ويمكن أن يكون لها دورٌ غير مباشرٍ في هٰذا المجال؛ وذٰلك أنّ عمليّة الانتقاء الطبيعيّ تساعد في تفسير وجود عددٍ أكبر لمجموع الكيانات، الّذي هو بدوره سيتكفّل في تقليل دور الصدفة، توضيح ذٰلك أنّه في حال عدم افتراض عمليّة الانتقاء الطبيعيّ، سيكون عدد مجموع الأفراد هو مجموع الأفراد الّذين عاشوا فعلًا في العصور المختلفة، لٰكن في حال افتراض هٰذه العمليّة، سيضاف إلى هٰذا العدد الحالات الافتراضيّة الّذين لم تسنح لهم الفرصة للعيش لعدم كفاءة أجدادهم، فلا بدّ أن يحسب عدد مجموع الكيانات بطريقةٍ تصاعديّةٍ، وهٰذا تعبيرٌ آخر عن الانتخاب التراكميّ الّذي ذكره دوكينز.

قد اتّضح بأنّ نظريّة التصميم الذكيّ ركّزت على مفهوم الانتقاء الطبيعيّ والبِنى الّتي تأبى التكوّن من خلال هٰذه العمليّة، لٰكنّ النقطة المهمّة هي أنّه في مقام الإجابة على الإشكال المطروح يمكن التركيز على أصل تفسير إيجاد الكيان المنظّم

---

(1) الكلام هنا في مرحلة الثبوت، لٰكن في مرحلة الإثبات ـ أي دلالة الشواهد على وقوع عمليّة التطوّر ـ فقد أوردت إشكالاتٌ متعدّدةٌ على هٰذه النظريّة، وقد أشرنا إليها في الملخّص بعنوان المناقشات الّتي تشكل على أصل نظريّة التطوّر.

من خلال الطريق غير المباشر، وتبيين أنّ هٰذا الطريق أيضًا لم يكن مستغنيًّا عن الناظم الهادف.

هٰذا في الحقيقة يشكّل لنا الصنف الثالث للإجابة على الإشكال مضافًا إلى الصنفين المذكورين سابقًا وهو أنّ نفس عمليّة التطوّر ـ بوصفها طريقًا غير مباشرٍ لإيجاد النَّظمِ ـ تحتاج إلى ناظمٍ؛ لأنّ نظريّة التطوّر تبيّن النَّظمِ من خلال نظمٍ آخر، أي أنّ تكاثر الوحدات مع التغيّرات الاتّفاقيّة تبتني على الخصائص الحيويّة: التكاثر، وتوارث الصفات، وبِنية الجينات...، مضافًا إلى أنّ عمليّة الانتقاء الطبيعيّ أيضًا مبتنيةٌ على الخصائص الحيويّة: التغذّي، والقدرة على الإنجاب...، فهي لتبيين النَّظمِ تستعين بنظمٍ آخر يحتاج بدوره إلى تبيينٍ.

بعبارةٍ أخرى أنّ أصل ادّعاء أنّ الآليّات الطبيعيّة ـ المشتملة على القوانين الطبيعيّة والصدفة في الطريق غير المباشر بنفسها تصلح لأن تكون خيارًا ثالثًا في عرض الصدفة المحضة والناظم الهادف ـ غير تامٍّ؛ لأنّ القوانين العامّة لا تحِلّ مكان التبيين الغائيّ بأيّ وجهٍ من الوجوه، وأمّا الصدفة المحضة، فقد فرض من البداية عدم إمكان اعتبارها تبيينًا معقولًا عن النَّظمِ في الكون، فالخيار المتبقّي لمنشإ النَّظمِ إنّما هو التنسيق بين هٰذه الآليّات أو ضبطها، وهو بدوره يحتاج إلى ناظمٍ، وهٰذا ما نطلق عليه التبيين الغائيّ غير المباشر.

ويمكن أن يُدّعى أنّ الطريق غير المباشر أقلّ تعقيدًا من الطريق المباشر، فيجاب بأنّه حتّى لو سلّمنا بالادّعاء أنّ ما هو واضحٌ من التعقيد فيه ـ أي في عمليّة التطوّر هنا ـ يكفي لردّ احتمال تبيينه من خلال الصدفة.

فتحصّل أنّ الإشكال المطروح غير واردٍ على التقرير التقليديّ لبرهان النَّظمِ، وأنّ هٰذه النظريّات الحديثة ـ كنظريّة التصميم الذكيّ ـ إنّما هي استدلالاتٌ تنزّليّةٌ، أي أنّها تضع التبيين الغائيّ غير المباشر جانبًا، وذٰلك من جهة التسليم بإحدى المسائل التالية: ـ ادّعاء وجود الخيار الثالث في الطريق غير المباشر.

ـ عدم القبول بوجود الصدفة، ومن ثَمَّ الغاية المردّدة في التبيين[1].

ـ ادّعاء عدم وجود النَّظمِ المعقّد في الطريق غير المباشر، فهي تبحث عن نُظُمٍ لا بدّ أن توجد من خلال الطريق المباشر، ولا يمكن فرض وجودها من خلال الطريق غير المباشر، نعم في حال ثبوتها ـ كما هي كذٰلك بمعيار أفضل تبيينٍ ممكنٍ ـ ستعزّز برهان النَّظمِ بأمثلةٍ تحتاج إلى التبيين الغائيّ المباشر.

(1) بما أنّ مجموع الكيانات غير شاملٍ لجميع الحالات، فلا بدّ من كون الغاية النهائيّة مجملةً أو مردّدةً بين مجموعة من الحالات المنظمة، وإلّا سوف لا يمكن الجزم بحصول الغاية النهائيّة المنشودة؛ لأنّه سيبقى دورًا ولو ضئيلًا للصدفة ـ الّتي يفترض وجودها على مستوى الدليل الإنّيّ؛ لأنّها مرفوضةٌ بالدليل اللميّ ـ المشار إليها في الطريق غير المباشر. يعتقد بعضهم أنّه لا بدّ من أن يكون الهدف أمرًا معيّنًا، بمعنى أنّ الهدف إذا كان أمرًا مجملًا أو مردّدًا بين مجموعةٍ من الأمور، لا يمكن أن ننسب النَّظمِ إلى المجموعة، لٰكنّ هٰذا يبدو غير صحيح.

قائمة المصادر

1. باربور، ايان، علم و دين، ترجمة بهاء الدين خرمشاهى، تهران، چاپ سوم، مركز نشر دانشگاهى، 1379 هـ ش.
2. بيهي، مايكل، صندوق داروين الأسود.. تحدّي الكيمياء الحيويّة لنظريّة التطوّر، ترجمة مؤمن الحسن وآخرون، الطبعة الثانية، مركز البراهين للأبحاث والدراسات، 2018 م.
3. دوكنز، ريتشارد ، الداروينيّة الجديدة، صانع الساعات الأعمى، ترجمة مصطفى إبراهيم فهمي، الطبعة الثانية، دار العين للنشر، 2002 م.
4. ديمبسكي، ويليام؛ ويلز، جوناثان، تصميم الحياة، اكتشاف علامات الذكاء في النَّظمِ البيولوجيّة، ترجمة مؤمن الحسن وآخرون، مصر، الطبعة الأولى، دار الكتاب للنشر والتوزيع، 2014 م.
5. زارع، روزبه، رامين، فرح، طراحى هوشمند: طرح و بررسى ديدگاه اليوت سوبر، پژوهشنامه فلسفه دين، 28، صص 123ـ148، پاييز و زمستان 1395 هـ ش.
6. طباطبايى، سيد فخر الدين؛ دانشور نيلو، يوسف، توهم خدا يا توهم داوكينز، معرفت فلسفى، 2، صص 73ـ100، سال دوازدهم، زمستان 1393 هـ ش.
7. عزمي، هشام ، التطوّر الموجه بين العلم والدين، الطبعة الثانية، مركز البراهين للأبحاث والدراسات، 2016 م.
8. مطهرى، مرتضى، مجموعه آثار استاد شهيد مطهرى، قم، چاپ نهم، صدرا، 1382 هـ ش.
9. Behe, Michael J., «Molecular Machines: Experimental Support for the Design Inference», In: Pennok, Robert T. (ed), *Intelligent Design Creationism and Its Critics: Philosophical, Theological, and Scientific Perspectives*, London, The MIT Press, 2001.
10. Craig, Edward (ed), *The Routledge Encyclopedia of Philosophy*, London, Routledge, 1998.
11. Gould, Steven Jay, «The Panda's Thumb», In: Pennok, Robert T. (ed), *Intelligent Design Creationism and Its Critics: Philosophical, Theological, and Scientific Perspectives*, London, The MIT Press 2001.

12. National Academy of Sciences and Institute of Medicine, *Science, Evolution, and Creationism*, Washington, D.C, The National Academies Press, 2008.
13. Ruse, Michael, «That Intelligent Design Represents a Scientific Challenge to Evolution», In: Numbers, Ronald L. (ed), *Galileo Goes to Jail and Other Myths about Science and Religion*, London: Harvard University Press, 2009.
14. Scott, Eugenie C., *Evolution vs Creationism: an introduction*, London, Greenwood Press, 2004.
15. Young, Christian C.; Largent, Mark A., *Evolution and Creationism: A Documentary and Reference Guide*, London, Greenwood Press, 2007.